المحاضرة٣

السرد العجائبي: النص الألفليلي

"المزيد من القصص العجيبة أو الموت"

" أن تقص مساوٍ لان تعيش، و يصبح السرد المعادل الكلي للحياة"

هل يقدم العجائبي رؤية للوجود أم يؤدي وظيفة جمالية فحسب؟؟

١مفهوم السرد العجائبي:

العجب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيئ أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه[١]

إن حدوث الحيرة و الدهشة من عدم التوصل لمعرفة كيفية حدوث الفعل" العجيب" هو ما يحدد العجائبي، فالعجائبي على هذا النحو صدع يتبطن جسد المألوف و يخترقه فيشيع الفوضى و التشويش.

و من المهم هنا أن نتطرق إلى رؤية تودوروف الذي حاول حصر مفهوم العجائبي بدقة ضمن لحظة زئبقية تتوسط جنسين مختلفين: " الغريب" و" العجيب" حيث:" يستغرق العجائبي زمن التردد أو الريب، و حالما يختار المرء هذا الجواب أو ذاك فإنه يغادر العجائبي كيما يدخل في جنس مجاور هو الغريب ...فالعجائبي هو التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية فيما يواجه حدثا فوق طبيعي حسب الظاهر"[٢]

يميز تودوروف بين مفهومي: الغريب و العجيب؛ فإذا قرر المتلقي أن قوانين الطبيعة تظل سليمة، و تسمح بتفسير الظواهر الموصوفة نكون أمام جنس الغريب، أما إذا قرر أنه ينبغي قبول قوانين جديدة للواقع و الطبيعة يمكن تفسير الظواهر بها فإننا نكون أمام

---

[١]- ينظر القزويني" عجائب المخلوقات" ت فاروق سعد. دار الآفاق. بيروت١٩٧٣.ص:٨

[٢]- تودوروف" مدخل إلى الأدب العجائبي" ت الصديق بوعلام، دار شرقيات، القاهرة،ط١ص:١٩

جنس العجيب.[1]

و في الثقافة العربية الاسلامية عرف مصطلح(الغريب)و(العجيب)انفتاحا على حقول معرفية متعددة، و ارتبطا بالمستوى العقائدي.

و السرد العجائبي سرد لا يتقيد منجزه بمعيار" الماصدق"، و يمتزج فيه التخييلي بالحقيقي، و لا يخضع لقوانين فيزيقية و لا يراعي قوانين الواقع.

السرد العجائبي و معايير التجنيس:

يطرح تجنيس النصوص إشكالا حقيقيا، يصل إلى حد المعضلة، إذ أنه من المؤكد أن النصوص تتغير من حقبة لأخرى تبعا لتغير الأنساق الاجتماعية و التاريخية التي تتحكم في ظروف إنتاجها و تلقيه.

و سنطرق هنا لبعض العناصر التي تحدد واقعية النص أو تخييله:

أ الزمن: كل حدث مؤطر- بالضرورة- ضمن زمن محدد، لذا فإنه يمكن اتخاذ الزمن معيارا للتفريق بين الخطابات؛ ففي الوقت الذي تستخدم فيه التقاليد الأدبية التخييلية قصصا لا زمانية و تبتدع أزمنة مطلقة و موغلة في الإيهام، فإن زمن السرد التاريخي يسير وفق حبكة زمنية محددة، و تحتفي السرود التاريخية بتحقيق التواريخ و زمن الأحداث ، كما تعمد السرود التاريخية تسلسل الأحداث،" ذلك أن التاريخ لا بد أن يلتزم بتتابع الأحداث كما وقع في الزمن الواقعي، أما القص فلا يختار الأحداث، بل الأفعال التي يصلح توظيفها في خدمة فكرة الحكاية، و هذه الأفعال غير المستمرة في الزمن الحقيقي إنما ينسجها القص في إطار الزمن القصصي"[2]

و لكن هل عنصر الزمن كاف للتثبت من واقعية النص السردي؟ إذ قد تعتمد بعض السرديات على المادة التاريخية حيث تستعين أحيانا بالبيانات التاريخية التي تحدد الأزمنة و الأمكنة و ليست من الواقعية في شيئ.

إذن لا بد من الاستناد على معطيات أخرى.

ب طبيعة المادة السردية(الوقوع): تعتمد السرود التاريخية على الأحداث التي وقعت

---

[1]- ينظر المرجع السابق ص:٢٠

[2]- نبيلة ابراهيم" فن القص بين النظرية و التطبيق" ص:٨٣

فعلا، و يمكننا بذلك العودة للمدونات التاريخية للتثبت منها، أما السرد التخييلي فيتموقع ضمن الاحتمال الممكن الوقوع لان البعد التخييلي له يفرض على القارئ إرجاء قبول وقوعه، و إن توفرت مؤشرات تؤكد وقوعه فعلا. و يتم تلقي أحداث السرد التخييلي باعتبارها تخييلا محتمل الوقوع لكنه لم يقع بعد.

ج طبيعة المرجع: تفرض طبيعة الواقعي أن تكون السرود متطابقة مع الحقيقة التاريخية فيكون المرجع بذلك ماديا، و عليه فإنه يمكننا التحقق من صحة التفاصيل و الأحداث، أما المرجع في السرد التخييلي فيكون ملتبسا لأنه مزيج من واقع و خيال.

د الشخصية: لا يهدف القص التخييلي إلى تقديم الشخصية بأوصافها المميزة لها، بل تهدف إلى الفعل في حد ذاته، أو بالأحرى مجموعة الأفعال التي تبدأ بحالة التوازن ثم تتطور إلى حالة اللاتوازن[١]

أما في السرد التاريخي فالشخصيات حقيقية مرجعية، لها اسم علم يقوم بوظيفة التفريد، بعكس شخصيات السرد التخييلي التي تكون متعددة قد تشابه الشخصية المرجعية، لكنها لا تحمل ملامح خاصة بها؛ فهي و إن كانت تحمل ملامح واقعية تقربها من الشخصية الواقعية لكن هذه الملامح لا تتصل بالمفرد بقدر ما تتصل بالمتعدد الذي يختلقه المؤلف لمقاصد سردية(خليفة، تاجر، لص...)؛ إنها نسخ متعددة تمثل أنماطا إنسانية لذا فهي لا تختص باسم علم و إن وجد فإنه من ابتداع المؤلف.

و الشخصية العجائبية مفارقة للواقع(جن، ساحر، مسخ...)

<u>ملاحظة:</u>

قد تتقاطع الشخصية العجائبية مع الواقع، لكن لتؤسس واقعا متخيّلا.

<u>تقنيات العجيب و تمظهراته في ألف ليلة و ليلة</u>:

<u>أولا</u>: العجيب المبالغ:يقوم هذا النوع على أساس تأكيد المعطيات الطبيعية ليعض المخلوقات و الأشياء إما بالتضخيم أو التقزيم(سفريات السندباد البحري و ما ضمنته من مبالغات كالعمالقة و المردة)[٢] و يمكن أن نلمس هذه المبالغة في تضخيم صورة المارد:" و خرج من ذلك القمقم دخان صعد إلى السماء و مشى على وجه الارض...و

١- ينظر نبيلة ابراهيم" فن القص بين النظرية و التطبيق" ص:٨٤

٢- ينظر ألف ليلة و ليلة، م

بعد ذلك تكامل الدخان و اجتمع ثم انتفض فصار عفريتا رأسه في السحاب و رجلاه في التراب، برأس كالقبة و أيدي كالمداري و رجلين كالصواري و فم كالمغارة و أسنان كالحجارة و منخار كالإبريق و عينين كالسراجين، أشعث أغبر"[١]

ثانيا: العجيب الغريب : يعمد إلى مزج الواقعي بالتخييلي؛ فالعجيب الغريب عجيب لأنه مثير للدهشة و الانبهار و يفوق تصور العقل، و غريب لأنه يحمل مدركات و حقائق متعارف عليها تعطل إمكانية عدم التصديق:" و إذا بحائط المطبخ انشقت و خرجت منه صبية رشيقة القد أسيلة الخد كاملة الوصف كحيلة الطرف بوجه مليح و قد رجيح...و في يدها قضيب من الخيزران فغرزت القضيب في الطاجن و قالت يا سمك، يا سمك هل أنت على العهد القديم مقيم؟ فرفع السمك رأسه من الطاجين و قال : نعم، نعم، ثم قال جميعه هذا البيت:

إن عدت عدنا و إن وافيت وافينا و إن هجرت فقد تكافينا" [٢]

يرفع هذا الشاهد درجات الرفض إلى أقصاها لأنه يفوق حدود العقل، و لكن يأتي السحر كمبرر من أجل التصديق خاصة إذا كان المتلقي يؤمن بالسحر و الشعوذة.

مشهد آخر يباغت المتلقي و لا يترك له مجالا للاستيعاب و يعطل إدراكه:" خطت دائرة في الوسط و كتبت فيها أسماء و طلاسم و عزّمت بكلام و قرأت كلام لا يفهم...و أخذت شعرة من شعر رأسها و همهمت بشفتيها فصارت الشعرة سيفا و ضربت ذلك الأسد نصفين فصارت رأسه عقربا و انقلبت الصبية حية عظيمة و همهمت على هذا اللعين و هو في صفة عقرب فتقاتلا قتالا شديدا ثم انقلب العقرب عقابا فانقلبت الحية نسرا..."[٣]

ثالثا: العجيب الوسيلي: يتمثل في الوسائل السحرية مثل الخواتم السليمانية و الأحصنة الطائرة و القماقم التي يكثر ذكرها في ألف ليلة و ليلة و ترد بوصفها قماقم نحاسية كان نبي الله سليمان يعاقب العفاريت و المردة بحبسهم فيها و يختمها بالرصاص و يلقيها في غياهب البحار لتبقى هناك ألاف السنين إلى أن يسوق القدر البطل فيفتحها ويخرج العفريت الذي يكون زمنه مفارق للزمن الواقعي، فهو يعيش في زمن مرجعي ماضي(زمن سليمان عليه السلام).

---

[١]- المصدر السابق، م١ حكاية الصياد مع العفريت:ص١٤:

[٢]- المصدر نفسه، حكاية الصياد مع الغفريت.ص:٢٤

[٣]- المصدر نفسه، حكاية الحمال مع البنات ص:٥١

رابعا: :المسخ و التحول: يتكرر مشهد المسخ و التحول كثيرا في الليالي، و يقصد بالمسخ و التحول:" الانتقال من حال إلى آخر"[١]

و يعد السحر و استعمال الطلاسم و الأدوات السحرية من أبرز وسائط العجائبي للانتقال من صورة واقعية إلى أخرى سحرية عجائبية، و غالبا ما يحدث المسخ و التحول عندما يتجاوز البطل المحظور و ينتهك المحرم، فعندئذ يتحول إلى قرد أو كلب أو بقرة، و قد تسخط مدينة بأكملها فتتحول:" فرأيت أناسا بأيديهم عصي على باب تلك المدينة فدنوت منهم فإذا بهم مسخوطين و قد صاروا حجارة..."[٢]

خامسا: عجائبية الحدث: و تتمثل في الرحلة نحو المجهول مثلا رحلة بلوقيا إلى جزيرة الحيات؛ حيات ضخمة تذكر الله و تصلي على نبيه و تسبح و تهلل وأعجب ما روته الحيات:" نحن من سكان جهنم و قد خلقنا الله نقمة على الكافرين... اعلم يا بلوقيا أن جهنم من كثرة غليانها تتنفس في السنة مرتين...و اعلم أن كثرة الحر من شدة فيحها و لما تخرج نفسها ترمينا من بطنها و لما تسحب نفسها تردنا إليها، فقال لهم بلوقيا هل في جهنم أكبر منكم فقالت له الحيات إننا ما نخرج إلا لصغرنا فإن في جهنم كل حية لو عبر أكبر ما فينا في أنفها لم تحس به..."[٣]

سادسا: عجائبية الزمن: الزمن العجائبي زمن لا يخضع للمعايير الفيزيقية، بل هو زمن مطلق :" الملك براخيا قال لبلوقيا إنك سافرت في هذين اليومين مسيرة سبعين شهرا "[٤]، ويطوي البطل دوما الأزمنة الطويلة بمساعدة كائنات عجيبة قد تكون فرسا نحاسية أو عفريتا.

سابعا: عجائبية المكان: يتسع فضاء الليالي ليشمل الأماكن المغلقة و الأماكن القصية العجيبة التي تنطوي على مخزون مذهل من الأسرار، وأبرزها مدينة النحاس، و جبل قاف، و جبل المغناطيس و جزر الواقواق؛ يرد في حكاية حاسب كريم الدين وصف مدهش لجبل قاف:" اعلم يا بلوقيا أن هذا جبل قاف المحيط بالدنيا...فقال بلوقيا للملَك هل خلق الله في جبل قاف أرضا غير هذه الأرض، قال الملك نعم خلق أرضا بيضاء

---

[١]- ضياء الكعبي" تحولات السرد العربي القديم، دراسة في الأنساق الثقافية "، أطروحة دكتوراه.الجامعة الأردنية٢٠٠٤،ص:٥٦

[٢]- ألف ليلة و ليلة، م١ ص:٤٥

[٣]- المصدر نفسه" حكاية حاسب كريم الدين"، م ٣ص:٣١

[٤]- المصدر نفسه ص:٤٢

مثل الفضة و أسكنها ملائكته أكلهم و شربهم التسبيح و التقديس... و كل جمعة يأتون إلى هذا الجبل و يدعون الله طوال الليل إلى وقت الصباح و يهدون ثواب ذلك التسبيح للمذنبين من أمة محمد و لكل من اغتسل غسل الجمعة... ثم إن بلوقيا قال له هل خلق الله جبالا خلف هذا الجبل فقال الملك نعم خلف جبل قاف جبل قدره مسيرة خمسمئة عام و هو من الثلج و البرد و هو الذي يمنع حر جهنم عن الدنيا و لولا ذلك الجبل لاحترقت الدنيا و خلف جبل قاف أربعون أرضا كل أرض منها قدر الدنيا أربعين مرة منها ما هو من الذهب و منها ما هو من الفضة و منها ما هو من الياقوت..."[١]

و تبقى جزر الواقواق الأكثر إدهاشا و غرائبية :" اعلم يا ولدي أن جزائر واق الواق سبع جزائر فيها عسكر عظيم و ذلك العسكر كله بنات أبكار و سكان الجزائر الجوانية شياطين و مردة و سحرة و أرهاط مختلفة و كل من دخل أرضهم لا يرجع.."[٢]

و يمعن القاص في التعتيم:" إن زوجتك في الجزيرة السابعة من جزائر واق الواق و مسيرة ما بيننا و بينها سنة كاملة للراكب المجد و على شاطئ هذا النهر جبل يسمى جبل واق و هذا الاسم علم على شجرة أغصانها تشبه رؤوس بني آدم و تقول في صياحها واق واق..."[٣]

السرد العجائبي: رؤية وجودية أم مقصد جمالي:

يهدف السرد العجائبي إلى تحقيق غايات معينة لعل أبرزها الإمتاع و المؤانسة، غير أن غاية العجائبي لا تقف عند هذا الحد فكثيرا ما يأتي العجائبي كغطاء لتجاوز الضوابط الاجتماعية و التخلص من الحواجز و المكبوتات و المحرمات الاجتماعية(الطابوهات) و عليه فالعجائبي عندما يقوم على أساس اجتماعي يشيد نصا إبداعيا له دلالته الاجتماعية و الأخلاقية، فكثيرا ما تأتي الآراء الممنوعة و المضطهدة متوارية في تلافيف هذه النصوص السردية المحتفلة بالعجائبي، و كثيرا ما يأتي العجائبي ذريعة لطرق المواضيع التي تحجرها الرقابة الذاتية أو الرقابة المقننة، فتقاليد المجتمع تحدد آراء المبدعين و تحملهم- إن شعوريا أو لاشعوريا- على تسليط رقابة ذاتية على إبداعهم فالعجائبي إذن قناع لخرق الممنوع و كسر الطابوهات.

١- ألف ليلة و ليلة، م٤ ص:٤٤

٢- المصدر نفسه، حكاية حسن الصائغ البصري، م ٤ص:٢٦

٣- المصدر نفسه، ص:٣٥